مفاهيم عامة لمقياس تاريخ الجزائر الثقافي

أ . التاريخ:

عرف "ابن خلدون" معناه العام الذي كانت تداوله الأمم والأجيال وأدراكهم له كفن من الفنون الشعبية، واستقبالهم له كرواية شعبية، ويزيد فيها الرواة حتى تتراكم الأخبار وتضرب فيها الأمثال ويحكونه في أنديتهم واحتفالاتهم، حيث بهذا المفهوم يقول: **((فإنّ فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال، وتشّد إليه الركائب والرّحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتساوى في فهمه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمى فيها الأقوال، وتضرب فيبها الأمثال ..))**.

أما عن تعريفه فهو حسبه: **((علم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل الحكمة عريق))**. فالتاريخ هو وصف الحوادث أو الحقائق الماضية وكتاباتها بروح الباحث الناقد عن الحقيقة الكامنة، وهو واسع ما تساع الحياة نفسها، ويضم الميدان الكلي الشامل للماضي البشري، والحقائق والبيانات التاريخية، وهي جزء لا يتجزأ من عملية النمو الاجتماعية الشاملة التي كانت تحيط بها.

ب . الثقافة:

الثقافة في لغة العرب تعود إلى كلمة (الثّقاف)، وهي الأداة التي كان صانعو الأقواس والرماح يسمونها بها، ويقال: أن الرمح أصبح مثقفا، وثقف الشيء أي أقام العوج منه سواء هذا من الناحية الحسّية، أما من الناحية المعنوية ويعنى هذا اكتساب الحذف والفطنة والنشاط.

أما عند الغرب فيدور معنى الثقافة في أصلها اللاتيني على فلاحة الأرض وتنمية العقل والذوق والأدب بالمعنى المعنوي.

أما التعريف العلمي فهي كما عرفها العالم الإنجليزي "دوارد بيرنت تايلور" (Edward Burnett Tylor) عام 1871، وهو التعريف الشهير الذي يقول فيه: **((هي ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والأعراف، وكل المقومات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع))**.

فهي جملة العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب العلم بها والحذق فيها، وهي أيضا لها علاقة مع المعارف الأخرى، فعلاقتها وطيدة بالعلم وبينها وبين الحضارة، فبالنسبة للعلم هو جملة المعارف التي يحصل

عليها المتعلم، والثقافة كذلك. أما من جهة التمايز فالثقافة تتميز بالتنوع والشمول، فمن أخذ شيئا من كل شيء أصبح مثقفا، وأما العلم فيتميز بالتّخصص، فمن أخذ كلّ شيء تقريبا من شيء واحد فقد أصبح عالما.

والثقافة طابعها شخصي تختلف من أمة لأخرى، فثقافة الوثني والنصراني والهندوسي.. الخ تختلف عن بعضها البعض لأن كل ثقافة تستمد عاصرها من تصورها الديني في المقام الأول، أما العلم فطابعه موضوعي تتحدُّ فيه النتائج، وميدان الثقافة أوسع من ميدان العلم، وإن كان العلم يخدم الثقافة ويرشدها، فهي لا تستغني عن العلم.

أما علاقة الثقافة بالحضارة، فإن الأخيرة تتناول جملة من مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي التي تنتقل من جيل إلى آخر في جوانب الحياة المادية، أما الثقافة فهي جملة العلوم والمعارف التي يطلب الحذف فيها، فالثقافة تهتم بالجوانب المعنوية والحضارة ألصقت بالماديات، وهذا الفرق في الجانب النظري فقط. أما في الجانب العملي فهما يرتبطان مع بعضهما ارتباطا وثيقا، لأن ثقافة كل أمة هي أساس حضارتها وفكرها وأسلوب حياتها، فالثقافة والحضارة متفقتان من هذه الناحية، فالثقافة هي المظهر العقلي للحضارة، والحضارة هي المظهر المادي للثقافة.

ج . الجزائر:

الجزائر اسم لمدينة عظيمة على البحر الرومي؛ تعرف قبل الفتح الإسلامي باسم "أقسيوم" (Icosium)، ولم تكن تطلق على وطن مترامي الأطراف إلا منذ العهد العثماني حيث اتخذ العثمانيون المدينة عاصمة لمملكة ذات حدود معينة، فاشتق اسم الوطن من هذه عاصمة دولته الجزائر. التي كانت تمثل جزء من وطن كبير عرف من قبل قدوم الفينيقيين باسم ليبية، وحسب الرّحالة "البكري" تشمل (طرابلس وتونس والجزائر ومراكش) ثم انسلخت الجزائر وما والاها غربا من هذا الاسم، فكان الجغرافيون اليونانيون واللاتينيون يقسمون هذا الوطن الذي عرف أخيرا باسم الجزائر إلى ثلاثة أقسام هي:

1 . مصيصليا (Massessylie) وهو عبارة سهول سطيف وبرج بوعريريج وتشمل الجزائر وغربها حتى وادي ملوية.

2 . مصيليا (Maessillie) وهو باقي شرق الجزائر إلى غرب تونس إلى طبرقة، ثم صارت مصيصليا تعرف بموريطانيا الشرقية ومصيليا بنوميديا.

3 . جيتولية (Getulie) وهو عبارة عن صحراء موريطانيا ونوميديا، ولما جاء الفاتحون المسلمون أطلقوا على اسم المغرب على ما بين برقة شرقا والمحيط الأطلسي غربا، والبحر الرومي شمالا الصحراء الكبرى جنوبا. وقد سموه المغرب لوقوعه غرب وطنهم جزيرة العرب ثم قسم العرب المغرب إلى أدنى وأوسط وأقصى؛ وذلك بالنسبة لشرقهم.

. المغرب الأدنى هو ما بين برقة شرقا وبجاية غربا.

. المغرب الأوسط هو ما بين بجاية شرقا ووادي ملوية غربا.

. المغرب الأقصى هو ما بين ملوية شرقا والمحيط الأطلسي غربا.

عرفت الجزائر عبر تاريخها دول متعاقبة على أرضها منذ القدم بما تحمله تلك الدول من مؤسسات دستورية وعلاقات خارجية ودبلوماسية، ومما تميزت به أنها كانت تصهر الوافدين إليها وتقودهم إلى الانخراط في نسيجها الاجتماعي، إذ سرعان ما يختلطون بأهلها الأصليين ويتزاوجون منهم، ويصبحون جزءا من هذه البلاد، وخاصة بعد الفتح الإسلامي.

يجمع المؤرخون أن البربر أو الأمازيغ هم أصل سكان الجزائر خصوصا، وبلاد المغرب عموما، وقد حافظوا على شخصيتهم عبر القرون مع الفينيقيين والقرطاجيين (814 . 146 ق.م) والرومان (146 ق.م . 429 م) والوندال (429 . 534 م) والبيزنطيين (534 . 647 م) إلى أن وحدّ البلاد تحت راية الإسلام في دائرة العروبة في القرن السابع الميلادي.

وفي هذا الشأن؛ لم يكن الأمازيغ الأحرار بعُدَاءُ عن العرب والعروبة فإن "ابن خلدون" مؤرخ البربر الأكبر وعمدة تاريخ بلاد البلاد القديم والمعتز بأصله البربري . مما يبدو من تاريخيه . يؤكد أن الأمازيغ أو البربر من أبناء مازيغ بن كنعان بن حام، وأن أصلهم من جهات ما بين النهرين بآسيا، ثم ارتحلوا إلى بلاد المغرب.

ومهما كان الحديث عن عروبة الأمازيغ، فالحاصل أن البربر والعرب كلهم انصهروا في بوتقة الإسلام، وهو ما عبر عنه الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي تعود أصوله إلى قبيلة صنهاجة البربرية: **((إن أبناء يعرب وأبناء أمازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة قرنا، تمّ دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشّدة والرّخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السّراء والضّراء، حتى كونت منهم، في أحقاب بعيدة، عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعادة كلمة الله، وما أسالوا من محابر في مجالس الدرس لخدمة العلم، فأي قوة بعد هذا، يقول عاقل، تستطيع أن تفرقهم؟)).**

وفي ظل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب من القرن السابع وحتى القرن السادس عشر الميلاديين، عرفت الجزائر دولا محلية متداخلة ومزاحمة لدولة الخلافة المشرقية، مما يرسخ تقاليد فكرة الدولة بالمنطقة، ومما بعد رصيدا تاريخيا للقائلين بعراقة الدولة الجزائرية وأصالتها على الرغم من تداخل حدود الجزائر مع غيرها من بلاد المغرب بشكل عام حيث نشأت عدة دول هي: (الرستمية، الإدريسية، الأغلبية، الفاطمية، الزيرية، المرابطية، الموحدية الحفصية، الزيانية) من 144هـ (909م) إلى 936 هـ (1554م).

وإن كانت هذه الكيانات السياسية خطوات عريقة في طريق تشكل أركان الدولة الجزائرية من حيث شعبها الذي صاغته الظروف البيئية والاجتماعية والسياسية، ومزجته القرون ووحدته الأقدار، وربطت بينه وبين أرضه التي استظل بظلالها، وارتوى من مياهها، وتغذى على ما يخرج من بواطنها؛ فإن بقية أركان الدولة ما فتئت تتكامل لتأخذ معالمها الثابتة في العصر الحديث منذ القرن السادس عشر الميلادي، من خلال اتفاق بعض زعمائها مع الأخويين "عروج" و"خير الدين بربروس"، على الاتحاد من أجل التصدي للخطرين الإسباني والإيطالي، بعد احتلالهما لموانئ جزائرية وفرض الجزية على سكان المدن الساحلية، مما دفع بالبلاد إلى الالتجاء إلى دولة الخلافة . آنذاك . وبفضل دعمها تحول خير الدين من مجرد أمير للبحر، إلى رئيس دولة مرتبطة بالخلافة العثمانية، ومتحالفة معها ضد إسبانيا التي كانت تقود التحالف المسيحي.

بفصل جهود "خير الدين بربروس"، بدأت معالم ومقومات الأمة الجزائرية، وكيان دولتها المتميزة تتحدّد باختيار عاصمة قارة (هي إلى الآن مدينة الجزائر) ورسم حدود معينة، ووضع قوانين إدارية وإقامة أنظمة اقتصادية واجتماعية، وعلاقات سياسية خارجية، ضمن نطاق الوحدة الطبيعية التي تربطها بالبلاد العربية والدولة العثمانية.

واستمرت تلك المعالم في عملية الترسيخ والتأكيد طيلة هذه المرحلة (1518 . 1830م) حيث دخلت الجزائر في فكرة . الحدود الجغرافية والسيادة الترابية . وحتى الاعتراف الدولي، تلك الجزائر التي امتدت من أدار إلى القالة، ومن مدينة الجزائر إلى بسكرة و ورقلة.

تمثل تلك القرون الثلاثة واحدة من أمجد عصورنا من حيث التعمير والإنشاء، وتنظيم المدن وتخطيط شوارعها من حيث الحفاظ على الأمن والاستقرار وتوطيدهما، والعناية الفائقة بالعلم والعلماء، لكن الكتابات الاستعمارية تغفل عن النظام الهيكلي للدولة عند المسلمين . في ذلك الوقت . وتتجاهل الإنجازات العظيمة في تلك الفترة، يكفي للاستدلال عليها، أن الجزائر أبرمت مع فرنسا 70 معاهدة فيما بين 1535 و1830م في إطار إنجازات عسكرية بحرية وإسعافات مالية ومساعدات غذائية لصالح فرنسا، كما نجد دليلا على عظمة الجزائر في ذات الرسائل التي كانت تُوجّهُ إلى حكامها من ملوك فرنسا وأباطرتها، حيث نقرأ في مستهل أغلبها عبارة: **((إلى السيد الأمجد الأعظم الأفخم))**، بل كان للدّاي شخصية دولية إذ كانت الدول تعقد معه المعاهدات باسم الدولة الجزائرية، التي كانت بمثابة جمهورية عسكرية تربطها بتركيا علاقات دينية واتفاقات شكلية، وكان حكام البلاد يتعاملون مع قادة الدول بصفة مباشرة، ويبرمون الاتفاقيات التجارية، ويتقاضون مع جميع الدول انطلاقا من مبدأ الدفاع عن مصالح الجزائر.